دلالة المفردة القرآنية في التفسير اللغوي النادر

حمد عثمان حمد عطية الله[*]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فإن كتاب الله (تعالى) معجز في كل حرف فيه، وهو حمال أوجه، وآياته وكلماته لها دلالات وأبعاد شتى، ومن تلك الدلالات دلالة المفردة القرآنية، إذ إن كل مفردة في القرآن أخذت موضعها فيه بدقة، وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي (رحمه الله) أنه لا يمكن استبدال لفظة مكان أخرى في القرآن الكريم.

وكل لفظة في القرآن لها معان يحددها السياق، وقد تكون هذه المعاني أحيانًا غير متبادرة إلى الذهن، لكن الدليل والواقع السياقي يقتضيها.

وبحثي هذا يتعلق بدلالة المفردة القرآنية في التفسير اللغوي، من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول: الغريب والبعيد في المعنى اللغوي.

المبحث الثاني: مراعاة العرف القرآني في القول النادر من التفسير.

(*) عضو هيئة التدريس – جامعة بنغازي.

تمهيد

الحمد لله الذي جعل القرآن مأدبة ينهل منها العلماء، ويتزود منها الأتقياء، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد إمام الأنبياء وخاتمهم، واول العابدين واخلصهم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه.. وبعد:

يقتضي الحديث عن الدلالة اللغوية للمفردة اللغوية في التفسير القرآني تحديد مفهوم المعنى المعجمي للألفاظ؛ إذ يراد بالمعنى المعجمي المعنى الذي نستقيه من المعجمات المختلفة، وهو ما يمثل المعنى الوضعي الأصل للفظ، وهو ما يقابل المعنى السياقي الذي يأتلف مع معاني وألفاظ أخرى داخل النظم خاضعًا لظروف تعبيرية وعلاقات معنوية، وهو ما يمثل المعنى الإضافي أو الثانوي لتلك الألفاظ والناتج عن المعنيين المعنى المعجمي والمعنى السياقي هو تعدد الأول واختلافه وتحدد الثاني وانسجامه وتناسقه.

وإذا سلطنا النظر على المعنى الإفرادي المعجمي رأينا أن اللفظة المفردة لابد أن تحمل معنى مشهورا معروفا عند اللغويين ومعاني أخرى متدرجة في الشهرة إلى أن تقع على معاني نادرة غير متبادرة إلى الذهن، فعندما تقول ضرب ينصرف الذهن إلى الضرب الحسي المعروف ولا ينصرف إلى سك العملة أو الضرب المثال.....إلخ إلا بالدلالة الكبرى وهي السياق.

وليس معنى الأخذ بالشائع المشهور من معاني اللفظ دليلاً على صحته ودقته إذا كان بعيدا عن المعنى السياقي والتئامه مع ما سبقه وما يلحقه من المعاني والظروف والعلاقات المحيطة بالآية أو السورة؛ ولذلك يعيب بعض المفسرين ممن لهم عناية بالسياق والمناسبة اجتهاد كثير من المفسرين في رص المعاني القريبة والبعيدة للفظ دون الربط بينها وبين سياقها، يقول ابن عاشور: (ت: ١٣٩٣ هـ): "وقد تعددت أقوال المفسرين في تقرير المراد بالكبد، و لم يعرج واحد منهم على ربط المناسبة بين ما يفسر

به الكبد وبين السياق المسوق له الكلام، وافتتاحه بالقسم المشعر بالتأكيد وتوقع الإنكار حتى كأنهم بصدد تفسير كلمة مفردة ليست واقعة في كلام يجب التئامه ويحق وئامه، وقد غضوا النظر من موقع فعل (خلقنا...)[1] ومعنى قوله: إن دلالة اللفظة وشهرة معناها شيء، والتئامه وانسجامه داخل السياق شيء آخر.

وهذا في الحقيقة هو ما قامت عليه كتب الأشباه والنظائر التي تذكر للمفردة الواحدة معاني مختلفة بحسب مواقعها وسياقاتها كلفظ (الهداية) أولفظ (الضلال) بأن تجمع ما تكرر منهما في مواضع من القرآن الكريم، وتنظر إلى استعمالاتها بمعان مختلفة ثم يعرف المعنى المراد من بين تلك المعاني.

وما ذكرناه –هنا– هو ما كان المعنى المعجمي فيه صحيحاً مشهوراً، ولكنه لم يراع فيه السياق والمناسبة، وأما ما كان المعنى المعجمي فيه غريبا نادراً بغض النظر عن مواءمته للسياق أوعدم مواءمته له فهو ما يقع منه في بعض كتب التفسير اللغوي على اختلافها، ولكنه قد يظهر بجلاء في بعض كتب تفسير غريب القرآن الكريم، فإن الناظر فيها يجد من التفسير اللغوي النادر لمعاني المفردات أشياء يقطع بأنها غير مرادة أو بعيدة غريبة لم يروها من الثقات الأثبات أحد، ولعلنا هنا نمثل لنماذج من بعض كتب تفسير غريب القرآن، وسأقتصر على تفسير غريب القرآن لابن الملقن (ت: ٨٠٤هـ) الذي أورد في كتابه تفسيرات لغوية لألفاظ قرآنية بمعان غير مشهورة أو غير معروفة، ومن تلك التفسيرات: تفسير قوله –تعالى–: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾[2] قال: "أي: يغمضوا"[3]، ومعلوم أن الغض غير الإغماض؛ إذ الغض نقصان من طرف العين وصرف له عن النظر، والإغماض إطباق جفن العين[4] والثاني غير مراد في ظاهر الآية،

(١) التحرير والتنوير، ٣٥١/٣٠.

(٢) النور: (٣٠).

(٣) تفسير غريب القرآن، ابن الملقن، معلومات الكتاب...

(٤) ينظر: مفردات الناظر القرآن، الراغب، ص ٦٠٧، وعمرة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ السمين الحلبي، تمر: محمد التونجي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣: (غض)، (غمض).

ولا من معاني الإغماض الغض.

وكذلك عندما تعرض لتفسير قوله – تعالى-: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾[١] قال في: ﴿**فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ "أي: يسارعون أو يساقون أو يدفعون"[٢] ومع أن خاتمة الآية هذه تكررت في سورة النمل مرتين، وكلاهما في سياق مختلف، فالأولى في سياق الامتنان وذكر ما تفضل به الله على نبيه سليمان – عليه الصلاة والسلام- وهي قوله –تعالى-: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾[٣] والأخرى التي مرت آنفاً، إلا أن ابن الملقن: (ت: ٨٠٤هـ) فسر لفظ (يوزعون) بما لم يسبق إليه وبما لم نجده عند أحد من المفسرين اللغويين أعني قوله: (أي: يسارعون) إذ دلالة اللفظ لا تخرج عن معنى: الكف والولوع والإلهام[٤]، ولا معنى لقوله: (يسارعون) لا في دلالة اللفظة ولا دلالة السياق، و لم أجده عند أحد من أصحاب المعاجم.

لأجل هذا كان الاهتمام بثنائية المعنى المعجمي والمعنى السياقي، فالدلالة المعجمية إذا كانت صحيحة منقولة كان الجمود على ظاهر معانيها اللغوية دون النظر إلى المعاني السياقية مخرجاً عن المعاني المرادة، فما بالك إذا كانت هذه المعاني غير صحيحة وغير منقولة أو على الأقل غير مشهورة فلاشك حينئذ أنها ستكون أبعد عن الوضع التركيبي السياقي.

وقد قسمت البحث إلى:

* * *

(١) النمل: (٨٣).

(٢) تفسير غريب القرآن، ص ٢٨٩.

(٣) النمل: (١٧).

(٤) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب، ص ٨٦٨ وعمدة الحفاظ، السمين: (وزع) وتاج العمدي، الزبيدي: مجموعة من العلماء، التراث العربي، سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٩٧: وزع)

المبحث الأول
الغريب والبعيد من التفسير اللغوي

إذا تحدثنا –هنا– عن الغريب والبعيد لا نتحدث عنه قطعاً بمعناه في كتب غريب القرآن كما ألمحنا مراراً، وإنما نتحدث عن التفسير اللغوي الغريب، أو بعبارة أكثر دقة المعنى اللغوي الغريب أو البعيد الذي يختاره المفسر أو يرويه عن أهل المعاني في تفسير ألفاظ القرآن الكريم، وإذا كان الغريب من الألفاظ معناه ضد الواضح منها، وهو ما يعرف أيضاً بالنادر أو الشاذ أو العقمي الغامض[1]، فإن التفسير اللغوي الغريب هو ما كان المعنى فيه غير مشهور لا يفهمه كل أحد، وفيه بعد عن دلالة اللفظ ودلالة السياق، مع القول بجواز صحته أو قبوله من حيث العموم.

وإذا كان الحكم على لفظ من ألفاظ القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو شعر العرب ونثرها بالغرابة يختلف بحسب اختلاف العالم ونظرته إلى الغريب، وأيضا يختلف باختلاف الزمان، فما قد يكون غريباً في زمن ابن عباس (ت: ٦٨هـ) مثلا قد لا يكون غريبا في زمن ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) وكلاهما ألف في الغريب، كذلك بالنسبة لغريب معاني القرآن الكريم يحتكم فيه إلى جزالة هذا المعنى والتئامه مع طريقة القرآن ومساقاته وعرفه مع الأخذ في العلم أنه يجب حمل اللفظ القرآني على أوسع معانيه المحتملة بدل حمله على بعض معانيه، وكما أن الألفاظ درجات في الفصاحة والبلاغة فكذلك المعاني المحتملة والممكنة درجات في الدلالة والإبانة.

فإذا ما وقفنا مع لفظة قرآنية مثل لفظة (**الجناح**) التي وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجاءت في معاني متقاربة في آيتين من المتشابه في واقعة واحدة من قصة

(١) ينظر: معاجم غريب القرآن، عوض القوزي، مجلة مجمع اللغة العربية – دمشق المجلة (٧٨)، الجزء (٤) ص ٩٩١.

موسى – عليه الصلاة والسلام–، الأولى في سورة طه وهي قوله –تعالى–: **(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)**[١]، والثانية قوله –تعالى–: **(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)**[٢]، تبين أن لفظ الجناح مما تباينت فيه أقوال أهل اللغة والتفسير حتى قال الطاهر بن عاشور: (ت: ١٣٩٣هـ) عنها وعن لفظ (**الرهب**) إنها كانت مجال تردد بينهم، واعتكرت محامل الألفاظ فما استقام محمل إحداها إلا وناكده محمل آخر فسلكوا فيها طرائق لا توصل إلى مستقر"[٣]، ويظهر هذا –أيضا– عند أصحاب الوجوه والنظائر فإن أبا هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ) أراد أن يذكر وجوه لفظ الجناح في القرآن الكريم فاقتصر على ما معناه الإثم والضرر[٤] وترك معاني آخرى للفظ الجناح منها ما نحن بصدده، وكذلك صنع الدامغاني: (ت: ٤٧٨هـ) فقد ذكر من معاني لفظ الجناح معنى الجانب أو الجناح بعينه[٥] وترك معاني كان عليه أن يذكرها منها: معنى الإثم، والضرر، ومعنى اليد وغيرها مما سيأتي.

والمقصود هو بيان معنى لفظة (**الجناح**) في هاتين الآيتين إذ قد فسر بعض أهل اللغة الجناح في الآية الأولى: **(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)** فقالوا: الجناح هو الجانب أو الجنب أو الناحية يقول أبو عبيدة: (ت: ٢٠٩هـ):

(١) طه: (٢٢).
(٢) القصص: (٣٢).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٠ /١١٣. بتصرف.
(٤) ينظر: الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، تح: أحمد السيد: دار الكتب العلمية الطبعة الأولى: ٢٠١٥ م، ص ١١٥.
(٥) البقرة: (٢٣٥).

"مجازه: إلى ناحية جنبك، والجناحان: هما الناحيتان قال: أضمه للصدر والجناح"[١].

وأما أهل التفسير فيقولون: إن الجناح في الآية يعنى: العضد أو الثياب أو الجيب يعني: جيب القميص[٢]، ومؤدى قول أهل اللغة وأهل التفسير واحد وهو أن الله ﷻ أمر موسى عليه السلام بضم يده تحت عضده ولن تصل يده عضده حتى تدخل من جيب قميصه، وإن كان قول أهل التفسير أكثر دقة وأوفق لاستعمال القرآن؛ لأن الله ﷻ قال في موضع آخر في القصة نفسها (**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**)[٣] فجاء بلفظ الجيب صريحاً، وإن كنا هنا لا نريد أن نستقصي ما قيل في التفسير اللغوي للآية بقدر ما يهمنا الوقوف مع التفسير النادر فيها.

وخالف الفراء: (ت: ٢٠٧هـ) جمهور اللغويين والمفسرين وفرق بين تفسير لفظ الجناح في الموضعين آية طه وآية القصص حيث قال في آية طه: "الجناح في هذا الموضع من أسفل العضد إلى الإبط"[٤] وقال في آية القصص: (**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ**) "يريد عصاه في هذا الموضع، والجناح في الموضع الآخر ما بين أسفل العضد إلى الرفع وهو الإبط"[٥] ونقله عنه بعض أهل اللغة وانتقدوه، ومن هؤلاء النحاس: (ت: ٣٣٨هـ) الذي قال: "ولم يقل هذا أحد من أهل التفسير ولا من المتقدمين علمته"[٦]، ووصفه مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ) بقوله: (وقال الفراء: الجناح هنا العصا، وهذا قول شاذ"[٧] والحق أن الفراء: (ت: ٢٠٧هـ) وإن لم يعلل تفريقه بين الموضعين إلا أنه

(١) مجاز القرآن، ١٨/٢ وينظر: الكشاف: الزمخشري، ٧٧/٤.
(٢) ينظر: جامع البيان الطبري، ٤٩/١٦، ٥٠ والهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ٤٦٢٨/٧ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠٨/١٦.
(٣) النمل: (١٢).
(٤) معاني القرآن، ١٧٨/٢.
(٥)معاني القرآن، ٣٠٦/٢.
(٦) معاني القرآن الكريم.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية، ٥٥٣٠/٨.

نظر إلى ما لم ينظر إليه غيره، وهو أن سياق الآيتين مختلف، وإن كانت القصة واحدة، ففي القصص يقول الله –تعالى–: (**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ {٣١} اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**)[١] وهنا تم ذكر المعجزتين، وهما إلقاء العصا وإدخال يده في جيبه وخروجها بيضاء من غير سوء ثم عطف فقال: (**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**) وعلى تقسيم الفراء: (ت: ٢٠٧هـ) معنى الآية هنا: واضمم إليك عصاك بعد أن ألقيتها فتحولت إلى حية تسعى أدخلت عليك الخوف والفزع و لم تعقب فإذا كان ذلك فضمها إليك فإنها ستعود كما كانت، كما قال الله –تعالى– في موضع آخر من سورة طه: (**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى {١٩} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {٢٠} قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**)[٢]، ثم قال في طه أيضا: (**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ**.....) فالضم هنا غير الضم هناك، ولاسيما أن العرب قد تطلق الجناح على العصا لاستعانتهم بها وكأنها جناح[٣]، وقد يستخدم الجناح أيضا بمعنى القوة والثروة، وللجناح في القرآن معان أخرى تدور بين الحقيقة والمجاز، وورود بعضها في موضع بمعنى ما لا يعني ورودها في جميع المواضع بالمعنى نفسه.

وقد ذهب الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) إلى عدم اختلاف الموضعين قال: "ومعنى: (**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ**) وقوله: (**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ**) على أحد التفسيرين واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء، وفي الثاني: إخفاء الرهب"[٤] واعترضه ابن

(١) القصص: (٣١-٣٢).
(٢) طه (١٩-٢١).
(٣) عمدة الحفاظ السمين. ١/٣٩٩-٤٠٠.
(٤) الكشاف: ٤/٤٩٣.

عاشور: (ت ١٣٩٣هـ) بأن حرف العطف يمنع ذلك ثم قال: "وادعاء أن يكون التكرير لاختلاف الغرض من الأول والثاني كما في الكشاف بعيد..."[١] وهو يقصد تكرار قوله: (**اسْلُكْ يَدَكَ**) وقوله: (**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ**) وكلام الزمخشري: (ت: ٥٣٨هـ) مقبول من جهة أنه لايعني التكرار اللفظي المفضي إلى إعادة المعنى نفسه في الآية السابقة إذ لا يصح بحال أن يكون لفظ (**اسلك**) له الدلالة نفسها التي يعطيها قوله: (**اضمم**) إذ معنى اسلك أدخل يدك لتخرج بيضاء، وهذه هي المعجزة، ولما كانت لا تتم معجزة خروج اليد كشعاع الشمس بيضاء إلا بعودها بعد ذلك إلى لون الجسد قال: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ) لتعود يدك إلى ما كانت عليه في حالتها الأولى، كما عادت العصا سيرتها الأولى، وفي (**اضمم**) دلالة زائدة وهي ذهاب الفزع والرهب الذي ناب موسي – عليه الصلاة والسلام– في سياق القصة بأكملها، وخاصة في سورة القصص، وبهذا يكون ما استبعده ابن عاشور: (ت: ١٣٩٣هـ) هو المعنى القريب الذي يقتضيه السياق وينسجم مع قاعدة[٢]: إذا دار الكلام بين التأسيس والتأكيد – والتأكيد هنا هو التكرار – قدم القول بالتأسيس على التأكيد لزيادة معنى في اللفظة أو الجملة، وهو عين كلام مكي بن أبي طالب: (ت٤٣٧هـ): "وحمل اللفظين على فائدتين ومعنيين أولى من حمله على التكرار بمعنى واحد"[٣].

ومما يذكر من التفسير اللغوي البعيد في الألفاظ القرآنية هنا تفسير ثعلب: (ت ٢٩١هـ) لقوله –تعالى–: (**وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**)[٤] قال: "قال أبو العباس: قال بعضهم في قول الله ﷻ: (**وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**): وهو وضعك الطعام

(١) التحرير والتنوير، ١١٣/٢٠.
(٢) ينظر: قواد الترجيح، الحربي، ٤٧٣/٢.
(٣) الايضاح الناسخ القرآن ومنسوخه، مكي بن أبي طالب / تح: أحمد حسن فرحت إدارة المنارة جبرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨.
(٤) محمد: (٦).

بعضه على بعض من كثرته، وخزير معرف بعضه فوق بعض"[١] وهو يشرح لفظة (**عرف**) مع أن المشهور في تفسيرها قولان: أحدهما – وهو الأكثر شهرة – قول أهل التفسير[٢]: (**عرفها**) عرفهم منازلهم فيها وطرقهم إليها، أو عرف المكلفين من عباده أنها لهم، أو أعلم الميت حين يموت مكانه من الجنة أو كما قال الزمخشري: (ت: ٥٣٨هـ)" حددها لهم، فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها "[٣] أو بينها لهم في كتابه بأنها جنة عالية قطوفها دانية، وكما بينها في السورة نفسها في قوله: (**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**.....)[٤] الآيات والمتأمل يرى أن كل هذه المعاني تدور حول التعريف والمعرفة التي هي ضد الجهل.

والثاني قول أهل اللغة: (**عرفها لهم**): أي جعل لها عرفا أي: ريحا طيبة، وطعام معرف أي مطيب، وهذا التفسير – وإن قال به كثير ونقله أهل اللغة – إلا أنه أقل دلالة على مراد الآية من القول الأول؛ ذلك أن أكثر موضوعات القرآن وروداً وأشهرها ذكراً هو وصف الجنة وذكر تفاصيل الحياة فيها فناسب ذلك ذكر التعريف بالمعهود عندهم الذي استقر في عقولهم وقلوبهم وصفه وحاله[٥].

وأقل شهرة وأبعد عن دلالة المفردة القرآنية تفسير ثعلب: (ت ٢٩١هـ) الآنف هذا إضافة إلى غموض عبارته وقبولها أن توجه إلى أكثر من معنى، فقوله: (وهو وضعك الطعام بعضه على بعض من كثرته) قد يحتمل أنه قصد معنى الارتفاع والعلو،

(١) معاني القرآن، أبي العباس ثعلب، جمع وتحقيق: شاكر الأسدي، طبعة الناصرية التجارية ١٤٣٠هـ – ٢٠١٠ م، الطبعة الأولى. ص ١٩٠.

(٢) ينظر، جامع البيان، الطبري، ١٩١/٢١. زاد المسير: ابن الجوزي: ٣٩٨/٧.

(٣) محمد: (١٥).

(٤) ينظر: تفسير غريبة القرآن ابن قتيبة، تح: السيد أحمد صفر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٣٩٨هـ ١٩١٨م، ومعاني القرآن النحاس، ٤٦٧٠٧٦٦/٦.

(٥) ينظر: تهديب اللغة، الأزهري: (خزر).

يعني أنه جنة عالية بقرنية قوله: (من كثرته) ولكن قوله بعد ذلك: (وخزير معرف بعضه فوق بعض) يذهب بنا في نظري إلى معنى آخر غير المعنى الأول، وهو الدلالة على طيب رائحة الطعام الذي تزكو رائحته ويطيب بوضع بعض أنواعه على بعض، والحقيقة أن الخزير هو أن تنصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق[1] وعلى هذا فهو يذهب إلى القول الثاني، وهو قول أهل اللغة، وما جعلنا نفهم كلامه على هذا النحو أنه سبق أن ذكر القولين السابقين ثم أردفهما بقوله: (قال أبو العباس: قال بعضهم في قول الله ﷻ....).

ولما كانت عبارته ينازعها معنيان فإن حملها على المعنى الأول الذي ذكرناه لا تحتمله دلالات الفعل: (عرف أو عرّف) المروية في كتب اللغة والمعاجم، فإنهم يقولون: أعرف فلان فلاناً وعرفه إذا وقفه على ذنبه ثم عفا عنه، ويقولون: عرفه الأمر: أعلمه إياه، وعرفه: طيبه وزينه، وما سوى ذلك فهو يدور حول المعنى نفسه مثل: اعترف بذنبه من المعرفة، أو اعترف اللقطة إذا عرفها بصفتها، ولم نجد عرفه أو عرفه بمعنى: رفعه أو علاه أو اعترف بمعنى: ارتفع أو علا اللهم[2] إلا في لفظين الأول منهما: عرّف الناسُ: إذا شهدوا عرفات. وهو مخصوص بمكان، وهو عرفات ثم إنه ليس فيه معنى العلو والارتفاع، والثاني: قولهم: اعرورف البحر إذا ارتفعت أمواجه، واعرورف السيل إذا تراكم وارتفع[3] وكل ذلك مجاز عن عُرْف الفرس وعُرْف الديك ونحوه أو عن العُرْف الذي هو الرمل المرتفع أو المكان المرتفع، ولهذا فإن تفسير: (عرفها لهم) رفعها لهم دلالة يخاصمها بعدها عن معاني دلالة الفعل (عرف) وإن كان قد جاء في القرآن الكريم مواضع وصفت فيها الجنة بالعالية منها قوله -تعالى-: **(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ**

(١) ينظر معاني القرآن، ص ١٩٠.
(٢) ينظر: الصماح، الجوهري، ولسان العرب، ابن منظور: (عرف).
(٣) تاج الورس، الزبيدي: (عرف).

{٢١} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ[١]، وقوله: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ {٨} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{٩} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)**[٢] وهذا يشمل علو المكان وعلو المكانة[٣].

والذي يغلب على كتب المعاني اعتمادها التفسير بمطلق اللغة، ولاسيما عند أبي عبيدة: (ت: ٢٠٩هـ) وقطرب: (ت: ٢٠٦هـ) والأخفش: (ت: ٢١٥هـ) إذ ما صح لغة ونقله الرواة ولو كان لهجة أو لغة قبيلة فسر به أصحاب المعاني ألفاظ وآيات القرآن الكريم مثل تفسير أبي عبيدة: (ت: ٢٠٩هـ) لقوله -تعالى-: **(وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)**[٤] قال: "العصمة: الحبل والسبب"[٥] ومع كون هذا التفسير لغوي بحت فإنه لا يخدم النص ولا يبين المقصود منها.

ومما يلحق بهذا النوع من تفسير الألفاظ القرآنية تفسيراً غريبا نادراً ما ذكره قطرب: (ت٢٠٦هـ) وأخذه عنه النحاس: (ت ٣٣٨هـ) وابن بحر: (ت٣٢٢هـ)[٦] في بيان قوله -تعالى-: **(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)**[٧] حيث قال: "فأما الصرة فالجماعة من الناس قال الله -تعالى-: (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّة) وقال الشمردل:

هباد أودية هبادي صرة خمشاء فيهن الأسنة تلمع[٨]

---

(١) الحاقة: (٢١-٢٢).
(٢) الغاشية: (٨-١٠).
(٣) تنظر: البحر المحيط. أبوحيان ٣١٩/٨، ٤٥٨/٨.
(٤) الممتحنة: (١٠).
(٥) مجاز القرآن، ٢٥٧/٢.
(٦) هو أبو مسلم محمد بن بحر المعتزلي ولد سنة ٢٥٤ هـ له كتاب: جامع التأويل لمحكم التنزيل علي مذهب الاعتزال أربع عشرة مجلدة، والذي يظهر أنه مفقود، وقد جمعت بعض نصوصه من كتاب مفاتيح الغيب للرازي وسميت: ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل، وتوفي سنة ٣٢٢هـ. ينظر: الوافي بالوفيات، الصغري، ١٧٥/٢، والأعلام، للزركلي، ٥٠/٢.
(٧) الذاريات: (٢٩).
(٨) هذا البيت غير موجود في جمعة نوري حمودي من شعر الشمرول ثم راجعت كتب المعاجم فلم أر أحداً استشهد به أو ذكره فيما اطلعت عليه من كتب المعاجم.

وقال امرؤ القيس:

فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل[1]

وما رواه قطرب: (ت: ٢٠٦هـ) هنا عن الشمردل فإننا لّما لم نجده في المجموع من ديوانه لم نهتد إلى سياقه الذي جاء فيه وإلى معناه، وأما تفسير الصرة بمعنى الجماعة من الناس فهذا أحد معاني هذا اللفظ الذي نجد من معانيه أيضا كما تذكره المعاجم: الصر: الشدة والامتناع، ومنه الإصرار، والصرة: أشد الصياح يكون في الطائر والإنسان وغيرهما، والصرة: تقطيب الوجه من الكراهة ونحو ذلك[2]، وقد استفاد قطرب: (ت: ٢٠٦هـ) دلالة اللفظ على الجماعة من بيت امرئ القيس الذي يصف فيه فرسه بأنه لحق جماعة بقر الوحش فأدركها كلها و لم تتفرق[3]، ولكن الآية التي حمل عليها هذا التفسير ليس فيها قرينة تدل علي إرادة معنى الجماعة كوضوحها في بيت امرئ القيس، ولو تركت معنى الصرة في الآية قليلاً واتجهنا بفضل تأمل إلى ألفاظ القصة في موضعين مثل قوله: **(وامرأته قائمة)** [4] وقوله: **(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ)** فإن دلالاتها صريحة في التصريح بالمفرد: ولعل قول قطرب: (ت ٢٠٦هـ): "الجماعة من الناس" أنه أراد الجماعة من النساء كما جاءت الروايات عنه في كتب التفسير وغيرها[5] بمعنى: فأقبلت امرأته في جماعة من النساء.

على أن جمهور أهل اللغة والتفسير يفسرون (الصرة) بالصيحة والضجة والرنة[6] التي كانت من سارة عن سماعها البشرى من الملائكة، وهو ما تبرزه الآيات في سورة

(١) معاني القرآن، ص.

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الراغب، وعمدة الحفاظ، السمين، تاج الورس، الزبيدي: (صر).

(٣) ينظر: ديوان امرئ القيس، شرح الشنتمري، تح: أبن القنصل إبراهيم، دار المعارف الطبعة الخامسة ص ٢٢.

(٤) هود: (٧١).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٧٨/٥، والدر المصون، السمين، ٥٢/١٥.

(٦) ينظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة، ٢٢٧/٢، معاني القرآن، الفراء، ٧٨/٣.
ومعاني القرآن أبو العباس ثعلب، وجمع وتحقيق: أحمد رجب أبو سالم، أضواء السلف الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ١٠١٢/٣.

هود والذاريات بما فيها من المشاعر والأصوات والحركات، ففي هود يقول الله – تعالى-: (**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {٧١} قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**)، وفي الذاريات: (**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ**)، وأنت ترى صخب النساء وعادتهن في استقبال أمر على خلاف العادة ظاهراً في ثنايا قوله: (**يَا وَيْلَتَى**) وقوله: (**فِي صَرَّةٍ**) أي صرير، وفي قوله: (**فَضحَكَتْ**) وفي (**فَصَكَّتْ وَجْهَهَا**) وشدة تعجبها وقولها: (**أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا...**) على أن بعض المفسرين[1] يقول إن معنى قوله: (**فِي صَرَّةٍ**) يفسره قوله: (**فَصَكَّتْ وَجْهَهَا**) يعني أن ضرب أصابعها على جبهتها أو لطمها لوجهها هو الصرير والضجة التي أقبلت فيها امرأة إبراهيم عليه السلام ومنهم من يفرق بين الصرة والصك والضحك، يقول السمعاني: (ت ٧٨٩هـ) (**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ**) في صيحة كأنها ولولت مثل ما تفعل النساء، ويقال: في صرة هو حكاية صوتها في الضحك، وقد قال في موضع آخر: (**فَضَحِكَتْ**) وهو مثل صرير الباب وخرير الماء، والقهقهة غير ذلك فالقهقهة أخذت من حكاية صوت الضاحك، وقوله: (**فَصَكَّتْ وَجْهَهَا**) أي: ضربت وجهها مثل ما تفعل النساء"[2].

ولذلك فإن تفسير قطرب: (ت ٢٠٦هـ) الصرة في الآية الكريمة بالجماعة من الناس أو النساء تفسير لغوي مطلق، وهو – في نظري – لا يمكن إخضاعه لتفسير المفردة القرآنية، وأنه لو صح مثل ذلك لصح حمل الآية على معان لغوية أخرى للفظ (**الصرة**) منها علي سبيل المثال: أن الصرة تأتي بمعنى تقطيب الوجه من الكراهة، ولكن ذلك لا تحتمله الآية وإن صح لغة؛ لذلك فإن الضابط في مثل هذه المسألة وفي غيرها أنه ليس كل ما صح لغة صح حمل آيات التنزيل عليه، وأن التفسير اللغوي الغريب في الألفاظ قد يأتي بما تقتضيه اللغة ودلالة تلك المفردة، لا بما يقتضيه السياق والنص.

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي، ٧٠٩٣/١١ -٧٠٩٤.

(٢) تفسير القرآن المعروف بـ تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، تـ: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، ٢٥٧/٥.

المبحث الثاني
مراعاة العرف القرآني في القول النادر من التفسير

إن للقرآن الكريم عادة وعرفاً لا يحيد عنهما، وعادات القرآن الكريم تتنوع فقد تكون في ألفاظه أو في أساليبه أو قصصه أو وعده ووعيده أو أحكامه لا يخرج كل ذلك عن عرفه وعادته إلا بتأويل صريح أو نقل صحيح، ومما يخص الألفاظ من ذلك يقول عنه الجاحظ: (ت ٢٥٥هـ): "وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة والجوع والخوف والجنة والنار والرغبة والرهبة والمهاجرين والأنصار والجن والإنس"[١] أما الأساليب فمن ذلك الإجمال في محل عدم الحاجة، وتعقيب النذارة بالبشارة والعكس، وذكر الأحكام بعد المواعظ[٢] ونحو ذلك كثير.

وما يهمنا –هنا– هو معرفة عادة القرآن في مفرداته وعرفه في استخداماتها واطراد معانيها التي لا تكاد تخرج عن مدلولاتها إلا فيما شذ وندر، ولعلنا نمثل هنا بكلمة النعيم التي جاءت نكرة ومعرفة في القرآن الكريم فيما يقرب من عشرين موضعاً، ولم يخرج معناها عن معنى النعيم الأخروي لا نعيم الدنيا، ومن هذه المواضع:

قوله –تعالى–: (**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)[٣]

وقوله –تعالى–: (**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**)[٤]

وقوله –تعالى–: (**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً**)[٥]

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة السابعة: ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/٥٨١، ٧٠٣.

(٣) القلم: (٣٤).

(٤) المطففين: (٢٤).

(٥) الإنسان (٢٠).

وقوله –تعالى-: (**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**)[١]

وقوله –تعالى-: (**وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ**)[٢]

يقول المطعني: "لا خلاف بين المفسرين في المراد بـــ (النعيم) في هذه المواضع إلا الموضع الأخير"[٣] ويعني به قوله –تعالى-: (**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**)[٤] فإن بعضهم ذهب به إلى النعيم الدنيوي، فدخل فيه نعيم الطعام والشراب واللباس ونحوه[٥]، والذي يظهر أنه لا ينبغي الخروج به عن نسق القرآن وعرفه في استعمال هذه الكلمة، والدليل دخول (أل) الاستـــغراق عليـــها وسؤال الله لهم من النعيم يوم القيامة بمعنى أنّ ما كنتم فيه من نعيم الدنيا حق وخير أم ما ترونه أمامكم من جنات تجري من تحتها الأنهار وحور وولدان وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فنعيم الدنيا يعقبه ذل وتحول وهذا نعيم دائم باق[٦].

وهذا على خلاف ما جاء في مفردة (**النعمة**) فإنها في جميع سياقاتها جاءت خاصة بما أنعم الله به على عباده في الدنيا على اختلاف أنواع النعم المادية والمعنوية، ومنها على سبيل التمثيل:

قوله –تعالى-: (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ**)[٧]

وقوله -تعالى-: (**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا**)[٨]

---

(١) الأنفطار (١٣).

(٢) التوبة (٢١).

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، الناشر: مكتبة وهبـــة، الطبعـــة الأولى، ١٤١٣ هـــ ١٩٩٢م.

(٤) التكاثر: (٨).

(٥) ينظر: جامع البيان: الطبري: ٦٠٢/٢٤-٦٠٣، البحر المحيط، أبو حيان، ٥٠٦/٨.

(٦) ينظر: خصائص التعبير القرآني، المطعني: ٢٨٩/١.

(٧) الأنفال: (٥٣).

(٨) النحل: (١٨).

وقوله –تعالى-: (**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ**)[1]

وقوله –تعالى-: (**وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**)[2]

وقوله –تعالى-: (**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**)[3]

- وهذا ظاهر في إرادة النعمتين الروحية بالإيمان والهداية وصلاح الأحوال وإما حسية مادية مثل الطعام والشراب ورغد العيش.

وما نحاول الوقوف معه –هنا- هو: هل وقف أصحاب المعاني على ما يسمى بالعرف القرآني واعتنوا به وراعوا عادة القرآن وخصائصه التعبيرية، أو أنهم قصدوا إلى المفردات القرآنية بعيدة عن نظيراتها في مواضع وسياقات متشابهة أو متقاربة من القرآن الكريم.

إننا لو وقفنا مع مفردة مثل مفردة (النصر) وأستقرأناها في مواضع من القرآن الكريم مع مراعاة مشتقاتها وتصريفاتها بين الإسمية والفعلية لوجدنا أنها تدور على معان متقاربة إن لم نقل أنها ترجع إلى أصل واحد، وهو المنعة والتأييد والظفر، وهذه بعض مواضعها مما جاء بصيغة الاسم:

قوله –تعالى-: {**وَمَاجَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**}[4]

وقوله –تعالى-: {**وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**}[5]

وقوله –تعالى-: {**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**}[6]

---

(١) المائدة: (٢٠).
(٢) النحل: (١١٤).
(٣) الدخان: (٢٥-٢٧).
(٤) الأنفال: (١٠).
(٥) الروم: (٤٧).
(٦) الصف: (١٣).

وقوله –تعالى-: {**وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ**}(١)

ومما جاء بصيغة الفعل:

قوله -تعالى-: {**وَإِن اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**}(٢)

وقوله -تعالى-: {**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ**}(٣)

وقوله –تعالى-: {**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ**}(٤)

وقد شذ أبو عبيدة: (ت: ٢٠٩هـ) عن جمهور اللغويين والمفسرين وفسر النصر في موضع من المواضع: وهو قوله –تعالى-: {**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**}(٥) فقال: "مجازه: أن لن يرزقه الله وأن لن يعطيه الله: قال وقف علينا سائل من بني بكر على حلقة في المسجد الجامع فقال: من ينصرني نصره الله، أي من يعطيني أعطاه، ويقال: نصر المطر أرض كذا، أي جادها وأحياها قال: وبيت الراعي:

وانصر أرض عامر

أي تعمدي، وقال الراعي:

أبوك الذي أجدى على بنصره فأنصت عني بعده كلُّ قائل

أي بعطيته، وقال:

وإنك لا تعطي امرأً فوق حقه ولا تملك الشق الذي الغيث ناصره(٦)

---

(١) العنكبوت: (١٠).
(٢) الأنفال: (٧٢).
(٣) التوبة: (٤٠).
(٤) القمر: (١٠) .
(٥) الحج (١٥) .
(٦) مجاز القرآن ٢ / ٤٦ والذي يظهر أن الشاهد الأول من شواهد المجاز خارق عن المقصود إذ البيت بتمامه: إذا ودع الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر. أي اقصدي وائتمي أرض عامر، ينظر ديوانه: ص ١٠٨ وينظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، تح: محمد كاظم، مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان.

ويفسر الفراء (ت ٢٠٧هـ) وغيره النصر في الآية بالمعنى المشهور فيقول: (قوله:{**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ**} جزاء وجوابه في قوله: (**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ**) والهاء في قوله: (**يَنصُرَهُ اللَّهُ**) للنبي ﷺ، أي ما كان منكم يظن أن الله لن ينصر أحداً بالغلبة حتى يظهر دين الله فليجعل في سماء بيته حبلاً ثم ليختنق به..."[١].

وما جعل أبا عبيدة (ت: ٢٠٩هـ) يذهب إلى هذا التفسير فيما أظن – عدم وضوح مرجع الضمير في قوله –تعالى–: (**يَنصُرَه**) فأعاده على بعض المنافقين في الآيات السابقة الذين ذكرهم الله بقوله: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**}[٢] وذلك للقرينة التي في قوله –سبحانه وتعالى–: (**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ**) التي تتقابل (**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**) ومعنى الكلام: من شك وظن أن الله سبحانه لن يرزقه في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى سماء البيت ثم ليختنق فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ أنه لا يرزق.

ولعل الحمل على القول المشهور هو الأولى لوجوه كثيرة منها أن إعمال الأغلب والأشهر في القرآن الكريم مقدم على الأقل شهرة ولاسيما إذا كان هذا المشهور هو المفهوم الجاري الذي يسبق إلى العقل. وهذا –أيضاً– ما ينتظم مع نظرية عرف القرآن في تفسير قوله –تعالى–: {**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**}[٣]: "من يمنعني من الله، وكذلك كل ما كان في القرآن منه فالنصر على جهة المنح"[٤] ثم إن السياق العام لسورة الحج يتحدث عن القتال والمدافعة والتمكين

(١) معاني القرآن ٢ / ٢١٨ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م: ص ٥٨٦ .
(٢) الحج: (١١).
(٣) هود: (٣٠).
(٤) القرآن، ٢ / ١٣ .

للمؤمنين ثم الختم بالجهاد والصبر عليه ونصرة المجاهدين فبعد هذه الآية مباشرة يأتي قوله -تعالى-: {**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**}[١] يعني المؤمنين والكفار اختصموا في دينه ثم جاء قوله -تعالى-:{**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**}[٢] ويدفع عنهم غائله المشركين ويبالغ في الدفع عنهم مبالغة من يغالب فيه[٣] ثم يلي ذلك آية القتال أو آية السيف كما يسميها الفقهاء، وهي قوله -تعالى-: {**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**}[٤] وقد رخص الله لهم فيها بقتال أعدائهم الذين كانوا يؤذونهم وكانوا يأتون النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج[٥] حتى نزلت هذه الآية، ويتضح تكرار لفظ النصر في سياق السورة عند قوله –تعالى-: {**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**} ذاكراً شروط التمكين للمؤمنين بعد نصرهم في قوله -تعالى-: {**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ**}[٦] الآية ثم يثني بعاقبة البغي والعدوان فيقول –سبحانه-:{**ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ**}[٧] ثم تختم السورة بالحث على الجهاد والوعد بالنصر فقال: {**وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**}[٨] فكان من اللائق وسياق السورة يتحدث عن هذا كله أن يرد النظير على نظيره وأن لا

(١) الحج (١٩).
(٢) الحج: (٣٨).
(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تح محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى – لبنان – بيروت ٤ /٧٢.
(٤) الحج: (٣٩).
(٥) ينظر الهداية إلى بلوغ النهاية إلى بلوغ النهاية، مكي، ٧ /٤٨٩٩، والكشاف، الزمخشري، ٤/١٩٨/ ١٩٩.
(٦) الحج: (٤١).
(٧) الحج (٦٠).
(٨) الحج: (٧٨).

تخرج الألفاظ ودلالاتها عن النسق العام للسورة، لا سيما أنه قد ورد فيها في غير موضع وفي غيرها من السور لفظ الرزق بمشتقاته و لم يخرج عم دلالته المعروفة.

وقد رأينا أصحاب كتب الوجوه والنظائر مطبقين على أن النصر في القرآن الكريم جاء على أربعة معان[1] هي: النصر بمعنى المنع، والنصر بمعنى العون، والنصر بمعنى الظفر، والنصر بمعنى الانتقام في شواهد لهم ليس هذا موضع ذكرها، وأنهم لم يشيروا إلى أنه جاء لمعنى الرزق بتاتاً.

وأما السياق الخاص بالآية فعلى الرغم من أن ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) وصفه بالغامض والمشكل إلا أنه ذكر أنه لا يخرج عن احتمالين[2]؛ الأول منهما: أن الآية استئناف ابتدائي بعد ذكر الفريقين السابقين وهما فريق من يعبد الله على حرف، والفريق المجادل الذي ذكره الله في قوله -تعالى-:{**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**}[3]، والدليل على ذلك أن الله سبحانه ذكر من أول السورة كل فريق مقروناً بقوله: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) أو (**وَمِنَ النَّاسِ**) فقال: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِن زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**}، ثم قال: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ**}، وقال: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ**} وقال: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**} ثم قال -هنا-:{**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ**} فالانقطاع وعدم العطف يدل على الاستئناف، والاحتمال الثاني: أن الآية تذييل لقوله -تعالى-: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**} واختصر الكلام و لم يجر للنبي ﷺ ذكر في قوله: {**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ**} لأنه العلم الذي لا يشتبه فيه، وأن

(١) ينظر الوجوه والنظائر: الدامغاني، ص ٥٣، ونزهة الأعين النواظر / ابن الجوزي، ص ٥٨.
(٢) ينظر التحرير والتنوير، ١٧ / ٢١٧.
(٣) الحج: (٨).

الكلام فيه وله معنى[١] وان الله ناصره في الدنيا بإقامة حجته وإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته وإدخال المؤمنين جنته.

ومما جاء أيضاً من التفسير اللغوي النادر و لم يراع فيه العربي القرآني والنظائر القرآنية تفسير لفظة (أوبي معه)، من قوله تعالى: {**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ**}[٢] حيث ذكر الأخفش (ت ٢١٥هـ) وهو في معرض حديثه عن معنى المآب في قوله -تعالى-: {**وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**}[٣] أن الأواب هو الراجع إلى الحق ثم قال: "وأما قوله -تعالى-: (**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ**) فهو – فيما يذكرون – التسبيح وهو – والله أعلم - مثل الأول يقول: ارجعي إلى الحق، والأواب: الراجع إلى الحق"[٤].

والظاهر من كلام الأخفش (ت ٢١٥ هـ) ترجيحه القول الثاني على القول الأول وهو قول جمهور أهل اللغة والتفسير وعلى رأسهم الفراء (ت ٢٠٧هـ) والزجاج: (ت ٣١١هـ) قال الفراء: "اجتمعت القراء الذين يعرفون على تشديد (**أوّبي**) ومعناه: سبحي"[٥] وقال الزجاج: "المعنى: فقلنا: يا جبال أوبي معه، وتقرأ أوبي معه على معنى عودي في التسبيح معه كلما عاد فيه، ومن قرأ أوبي معه فمعناه: رجعي معه: يقال: آب يؤوب إذا رجع، ومعنى رجعي معه سبحي معه ورجعي التسبيح معه[٦].

وقد تكرر في القرآن الكريم التعبير بـ (أواب) و (الأوابين) و(مآب) وغيرها وهي

(١) ينظر: روح المعاني، الألوسي، ٩ /١٢١ / ١٢٢.
(٢) سبأ: (١٥).
(٣) آل عمران: (١٤).
(٤) معاني القرآن: ١ / ٢١٣.
(٥) معاني القرآن، ٢ / ٣٥٥.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، ٤ /٢٣٤. ونظير: الهداية إلى بلوغ النهاية: مكي ، ٩ / ٥٨٨٩ دار الكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. ٣ / ٧٤٤.

تعود في معناها اللغوي إلى الرجوع، وفي الاستعمال القرآني بمعنى التوبة وكثرة الإنابة إلى الله تعالى، ولا تطلق إلا على من اتصف بالمبالغة في التوبة وتذكر الذنب كما قال الله تعالى في صفة بعض أنبيائه: { **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ**}[1]، وقال في صفة المؤمنين: {**إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً**}[2] وغيرها من المواضع غير أنه من عرف القرآن الكريم أيضاً أنه يذكر تأويب الجبال والطير على الخصوص كلما ذكر داود عليه السلام في سياق الامتنان والتفضل عليه، وجاء ذلك في مواضع منها:

{**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**}[3]

{**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَه يُسَبِّحْن بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**}[4] وهذا الموضع الذي نحن بصدده وهو قوله: {**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**}.

وتوجيه تفسير الأخفش (ت٢١٥هـ) في (**أَوِّبِي مَعَهُ**)، أي: ارجعي إلى الحق مشكل؛ لأن دلالته غامضة، وما معنى أن ترجع الجبال والطير إلى الحق؟ ولعل سياق الآيات قبلاً تدعو منكري الآخرة إلى النظر في السماء والأرض حيث يقول المولى – تعالى-: {**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ**}، ثم قال: (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**)[5]، ثم قال: (**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ**) يعني رجوع إلى الله وإلى الحق الذي تدل عليه الآيات البينات، وقد توضح آية سورة (ص) بعض الإشكال في كلام الأخفش: (ت: ٢١٥هـ) وهي قوله: (**كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**) أي: كل من داود والجبال

(١) ص: (٣٠)، (٤٤).
(٢) الإسراء: (٢٥).
(٣) الأنبياء: (٧٩).
(٤) ص (١٨).
(٥) سبأ: (و).

والطير أواب، أي: رجاع إلى الله تعالى الحق، وفيه بعد -من وجهة نظريت؛ لأن سياق الآيات يأمر الجبال والطير بالتسبيح مع داود كما جاء في الآيات الثلاثة كلها مصحوبة بالظرف (مع) ثم إن الضمير في قوله -تعالى-: (**له**) يعود على آخر مذكور وهو داود - عليه الصلاة والسلام- وكذلك في آية سبأ قال فى ختامها: (**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**).

ومما قد يستدل به للأخفش: (ت: ٢١٥هـ) فيما ذهب إليه قراءة (**أُوبْي**) بضم الهمزة وتخفيف الواو، سيرى معه أين سار، والتأويب سير النهار، وكان الإنسان يسير الليل ثم يرجع للسير بالنهار، أي: يردده[١] .بمعنى أن الأخفش نظر إلى المعنى اللغوي البحت المقطوع عن السياق ليكون المعنى على قوله: أُوْبي أي ارجعي إلى الحق، وهو في نظري لا يزال بعيداً عن المعنى الحقيقي للآية واللفظة معاً لسببين:

الأول: أن القراءة بالضم والتخفيف قراءة الحسن وهي قراءة شاذة[٢] قال الطبري: (ت: ٣١٠هـ) عنها: تلك قراءة لا أستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة"[٣] والأولى -هنا- هو حمل معنى القراءة الشاذة على معنى القراءة المتواترة.

الثاني: أنه لا محصل من معنى (**سيري معه**) أي: تسير معه الجبال والطير، وإذا أصح ذلك في الطير فكيف يصح المعنى فى الجبال، لا سيما أن اللفظ فسر في الموضعين اللذين ذكرناهما آنفا من سورة الأنبياء وسورة (ص) وهو قوله -تعالى-: (**يُسَبِّحْنَ**)، وكذلك تحديد وقت التسبيح في الآية الكريمة (**يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ**) وهو الوقت الذي تكرر ذكره في القرآن مقرونا بالذكر والتسبيح كما في قوله -تعالى-: {وَسَبِّحْ **بِحَمْدِ**

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٧ /٢٥٢.

(٢) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البنا، تح: شعبان إسماعيل، عالم الكتب - بيروت - مكتبات الكليات الأزهرية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٢ / ٣٨٢، وينظر: معجم القراءات، الخطيب، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ٧ / ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) جامع البيان، ١٩ /٢١٩.

رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}[1] وهو يرد كثيراً في القرآن الكريم، هذا فصلاً على أن تفسير الأخفش لم أقف على من نقله أو نقل نحواً من عبارته.

والذي يظهر أن الأخفش: (ت: ٢١٥ هـ) يذهب مذهب المعتزلة في نسبة كل ما يسبح ويسجد من الجمادات والحيوانات إلى المجاز، وأن الله تعالى يخلق فيها أصواتاً تسبح فيُسمع منها ما يسمع من المسبّح[2]، وكذلك فعل الزمخشري: (ت: ٥٣٨هـ) إذ تأول أصرح آية فى تسبيح الجمادات والمخلوقات، وهى قوله –تعالى-: ({**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**} مع أن الآية أدخلت في المسبحين ما ليس من الجمادات في قوله: (**وَمَن فِيهِنَّ**) وهو يشمل الملائكة والجن والإنس، قال الزمخشري: (ت: ٢١٥ هـ) "التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز"[3] وإذا خرجت المسألة إلى التأويل العقدي – وإن كان لها ذيل لغوي- فإن لبسطها موضعاً آخر.

ومن المفردات القرآنية التي جاءت في القرآن الكريم واستخدمها في مواضع كثيرة وسياقات مختلفة ومناسبات عديدة مفردة (**السحر**) التي لم تخرج عن معنى سَحَرَه: أبدى له أمراً يدق عليه ويخفى، كل ما لطف ودق فهو سحر، وقد وردت في صيغ كثيرة منها: الفعل والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول... إلخ.

فمن الفعل قوله –تعالى-:

{**قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ**

(١) غافر: (٥٥).
(٢) ينظر: الكشاف. المزمخشري، ٥ / ١١٠.
(٣) ينظر: المصدر السابق، ٣ / ٥٢٣.

عَظِيمٍ}[١]

{**وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**}[٢]

ومن المصدر قوله –تعالى–:

{**فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ**}[٣]

{ **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنـــزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ**}[٤]

ومن اسم الفاعل قوله –تعالى–:

{**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**}[٥]

{**وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**}[٦]

واما صيغة (**مفعول**) فإن الجمهور على إطرادها في المعنى نفسه إلا أبا عبيدة: (ت: ٢١٠هـــ) خالف الجمهور في معنى مفردة (**مسحور**) التي جاءت في أربعة مواضع من القرآن الكريم نستعرضها أولاً، ثم تتحدث عن معانيها كما جاءت عند أبي عبيدة (ت: ٢١٠هـــ) وغيره وهي:

قوله –تعالى–: {**بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**}[٧]

وقوله –تعالى–: {**إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**}[٨]

وقوله –تعالى–: {**فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً**}[٩]

---

(١) الأعراف: (١١٦).
(٢) الأعراف: (١٣٢).
(٣) يونس: (٨١).
(٤) البقرة: (١٠٢).
(٥) الزخرف: (٤٩).
(٦) طه: (٦٩).
(٧) الحجر: (١٥).
(٨) الإسراء (٤٧).
(٩) الإسراء: (١٥١).

وقوله -تعالى-: {**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**}[1]

إن أهل اللغة والتفسير يفسرون ما جاء من مثل: (**مسحوراً**) و(**مسحورون**) بمعنى سُحر فجُن، أو اختلط عقله، أو أنه سُحر فخُدع فهو مخدوع[2]، أما أبو عبيدة: (ت:٢١٠هـ) فيقول: "أي: ما تتبعون كقولك ما تتبعون إلا رجلاً مسحورًا، أي له سحر: وهو أيضاً مسحر، وكذلك كل دابة أو طائر أو بشر يأكل فهو مسحور؛ لأن له سحراً، والسحر الرئة قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحّر

وقال:

ونُسحر بالطعام وبالشرب[3]

أي: نغذي، لأن أهل السماء لا يأكلون فأرادوا أن يكون ملكاً[4]، وقد نقله بعض أئمة اللغة والتفسير وعزوه إليه فقد قال عنه ابن قتيبة: (ت: ٢٧٦هـ) "ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير المستكره"[5]، وقال الألوسي: (ت١٢٧٠هـ) فيه: "ولا يخفي ما فيه من البعد"[6].

ولعلنا نلحظ ما عند أبي عبيدة: (ت٢١٠هـ) غالباً من كثرة في الشواهد الشعرية على صغر حجم الكتاب، وهي شواهد يوردها احتجاجاً على وجود هذا المعنى في اللغة وأن العرب استخدمته، ولكنه استدلال لا يؤيد بالضرورة المعنى المراد من جهة تعلقه بالآية وسياقها هي الذي جاءت فيه، هذا فضلاً عن احتمال الشاهد لمعان أخرى

(١) الفرقان: (٨).
(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن من ترقية: ص ٢٥٥ – ٢٥٦، ومعاني القرآن، النحاس ٤ / ١٦١ – ١٦٢ الكشاف، الزمخشري، ٣ / ٥٢٣.
(٣) هو شطر بيت من قصيدة لأمرئ القريس وأوله: أرانا موضعين لأمر غريب، ينظر ديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي دار المعرفة – بيروت – لبنان الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
(٤) مجاز القرآن، ١ / ٣٨١، ٣٨٢.
(٥) تفسير غريب القرآن: ص ٢٥٥.
(٦) روح المعاني، ٨ /٨٦.

تخدم الآية بالمعنى الذي يذهب إليه الجمهور في تفسير المفردة في الآية السابقة، ذلك أننا يمكننا أن نفهم بيت امرئ القيس السابق:

أرانا موضعين لأمر غريب ونسحر بالطعام وبالشرب

أن معناه: أرانا مسرعين في قطع آجالنا إلى أمر غريب لا نعلمه ولا ندري ما يحل بنا، ونحن نسحر أي: نخدع بالطعام وبالشراب وملذات الدنيا، ويكون معنى (**نسحر**) على بابه، وأننا إذا فسرناه بما فسره به أبو عبيدة ضعف معناه في نظري. هذا فضلاً على أن خروج معنى (**مسحور**) في آية الإسراء خاصة عن المشهور قلق من جهة مجيئها في سياق ولحاق يجعل قول الجمهور هو المقدم، ذلك أن سورة الإسراء ابتدئت بإسراء نبينا محمد ﷺ ومعراجه ثم تحدثت عن هداية القرآن للمؤمنين في قوله: {**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**}[1] ثم جاءت الآيات إلى وصف فيها المشركون النبي ﷺ بأنه مسحور لتبدأ بقوله –تعالى–: (**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**) وواضح من السياق القرآني هنا اهتمامه بذكر القرآن، وأن كلام المشركين كان في حال قيام النبي ﷺ بتلاوته، يقولون وهم يتناجون فيما بينهم إن هذا إلا كلام رجل مسحور؛ لأنهم لما اختلفوا فيه بعد سماعه منه فقال أحدهم شاعر وقال الآخر كاهن، ولذلك جاء قوله –تعالى–: {**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**}[2]، قال الطيبي (ت: ٧٤٣هـ) "والمناسب أن يراد الوجه الأول أي: مثلوك

(١) الإسراء: (٩).
(٢) الإسراء: (٤٨).

بالشاعر والساحر والمجنون"[1] وهذه الخاتمة التي ختمت بها الآية هنا وهي قوله: {**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ**} جاءت في الآية نفسها في سورة الفرقان التي وصف فيها المشركون النبي ﷺ بأنه مسحور وهي قوله: {**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**} غير أنها سبقت هنا أيضاً بما يدل على أن معنى (**مسحورا**) على غرار نظائره في القرآن الكريم وهو قوله –تعالى–: {**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**}، فقوله: (**يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**) كناية على أنه بشر وليس ملكاً، ولذلك استبعد إعادة المعنى نفسه في قوله: (**مسحوراً**) أنه ذو سحر بمعنى أنه يأكل ويشرب، وأما آية الإسراء الثانية فإنها في موسى – عليه الصلاة والسلام–، ووصف موسى بالسحر جاء على لسان فرعون وهو قوله: {**إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً**}[2] فإن معناها ظاهر أنه أريد به أن فرعون لما رأى الآيات، و لم يكن له فيها مدفع قال: إن موسى ذو سحر وإن ما تفعل يا موسى من العجائب من سحرك[3].

وليس معنى محاولة رد النظير إلى نظيره والشبيه إلى شبيهه في المفردات وحتى الأساليب أن ما جاء بخلافها يطرح ولا يعبأ به كما جاء في تفسير أبي عبيدة السابق وغيره، ولكن يظل القول به ضعيفاً غير منسجم مع عرف القرآن وعادته في استخدام المفردات، وإن كان قد صح القول به من جهة اللغة فإن جوازه في اللغة شيء واستعمال القرآن الكريم له شيء آخر، ثم إن اطراد الاستعمال القرآني في مفردة من المفردات أكبر معين على فهم مرامي الكتاب العزيز ومعرفة مراداته.

* * *

(١) فتوح الغيب. ٩ / ٣٠٩، ٣١٠.
(٢) الإسراء: (١٥١).
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي، ٦ / ٤٣٠٢ – ٤٣٠٣.

الخاتمة

توصلت من خلال بحثي إلى ما يلي:

١- ليس بالضرورة أن يكون المعنى المشهور للفظة القرآنية هو المراد في السياق القرآني؛ إذ قد يحتمل أن يكون المعنى النادر أو البعيد هو المقصود من كلام الله (تعالى).

٢- أن الغريب في اللغة يختلف من زمان لآخر؛ حسب استخدام أهل كل زمان له.

٣- يغلب على كتب معاني القرآن اعتمادها التفسير بمطلق اللغة.

٤- يمتاز القرآن الكريم بأن له عادات وأعراف متنوعة في ألفاظه وأساليبه وقصصه ومختلف موضوعاته لا يحيد عنها إلا بتأويل صريح أو نقل صحيح.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١- إتحاف فضلاء البشر، البنا، تحقيق: سفيان إسماعيل، عالم الكتب - بيروت، مكتبات الكليات الأزهرية - بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار أحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي — بيروت.

٣- الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة.

٤- الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، مكي بن أبي طالب، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار المنارة - جدة، الطبعة الأولى - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

٥- البحر المحيط، أبوحيان، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٦- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٧- تاج العروس، الزبيدي، مجموعة من العلماء، التراث العربي، سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٨- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م.

٩- تفسير القرآن، السمعاني، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٠- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

١١- تفسير غريب القرآن، ابن الملقن، تحقيق: سمير طه المجذوب، عالم الكتب

١٤٣٢هـ ٢٠١١م .
١٢- تهذيب اللغة، الأزهري، مجموعة من العلماء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
١٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي مركز البحوث والدراسات الإسلامية، طباعة دار هجر، الطبعة الأولى.
١٤- خصائص التعبير القرآني، المطعني، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .
١٥- الدر المصون، السمين، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم – دمشق.
١٦- ديوان امريء القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة - دار المعارف.
١٧- روح المعاني، الألوسي، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .
١٨- زاد المسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
١٩- الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين.
٢٠- عمدة الحفاظ، السمين، تحقيق: محمد التونجي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٢١- فتوح الغيب، الطيبي، تحقيق مجموعة من الباحثين، طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.
٢٢- قواعد الترجيح عند المفسرين، الحربي، دار القاسم، طبعة ٢٠٠٨م.
٢٣- الكشاف، الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
٢٤- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر – بيروت.

٢٥- مجاز القرآن، أبوعبيدة، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.
٢٦- المحرر الوجيز، ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، منشورات دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٢٧- معاجم غريب القرآن، القوزي، مجلة مجمع اللغة العربية - دمشق.
٢٨- معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٢٩- معاني القرآن الكريم، النحاس، تحقيق: محمد الصابوني، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
٣٠- معاني القرآن وإعرابه، ثعلب، جمع وتحقيق: أحمد رجب أبو سالم، أضواء السلف، الطبعة الأولى ٢٠١١م.
٣١- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تحقيق: عبدالجليل عبده الشلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
٣٢- معجم القراءات، الخطيب، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
٣٣- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، دار الشامية - بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٣٣هـ ٢٠١١م.
٣٤- نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، الناشر مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
٣٥- النهر الماد، أبوحيان، تحقيق: بوران وهديان الضناوي، مؤسسة الكتب الثقافية - دار الجنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٣٦- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، مجموعة رسائل جامعية، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ

٢٠٠٨م.
٣٧- الوجوه والنظائر، أبوهلال العسكري، تحقيق: أحمد السيد، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ٢٠١٠م .
٣٨- الوجوه والنظائر، الدامغاني، تحقيق: عربي عبدالحميد علي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

* * *